رجال من معارك الإسلام

تأليف
محمد شديد

قائد في سن العشرين
أسامة بن زيد

مؤسسة الرسالة

قائد في سن العشرين

أسامة بن زيد

فرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأسامة بن زيد عطاء أكبر من عطاء ابنه عبد الله بن عمر.. فسأله عبد الله عن سر هذا التمييز فقال:

يا بني، كان زيد أحب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- منك، فآثرت حب رسول الله على حُبّي.

وكان عمر رضي الله عنه إذا لقي أسامة، يقول له: السلام عليك يا أميري.. فيقول له أسامة: غفر الله لك يا أمير المؤمنين، لمَ تقول ذلك؟

فيقول عمر: تُوفّيَ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- وأنت عليّ أمير..

فمن هو زيد الذي كان أحب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من عمر بن الخطاب؟

ومن هو أسامة الذي كان أميراً على عمر بن الخطاب،

وكان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن عمر؟

أما زيد بن حارثة فقد اختطف من أهله صغيراً، وَبِيعَ في سوق عكاظ بيع الرقيق، كما كان يصنع العرب في الجاهلية، ووصل إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فوهبته لزوجها محمد- صلى الله عليه وسلم- قبل بعثته، فأعتقه وتبناه، فكان يعرف بين أهل مكة بزيد بن محمد.

وسبب هذا التبني أن حارثة والد زيد وعمه جدَّا في البحث عنه، بعد خطفه، حتى علما بمكانه في مكة، فحضَرَا وكلَّما النبي- صلى الله عليه وسلم- فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكون الأسير العاني، وتطعمون الجائع، جئناك في ولدنا عندك، فامنن علينا وأحسن في فدائه، فإنا سندفع لك.

قال: أو غير ذلك؟ قالوا: وما هو؟

قال أُدعوه، فخيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء..

فقالوا: زدت على النصف وأحسنت.

فدعاه فقال: تعرف هؤلاء؟

قال نعم. أبي وعمي.

فقال له: انا من علمت وقد رأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما.

فقال: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مكان الأب والعم.

فقال أبوه: ويحك يا زيد، تختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهلك؟!

قال: نعم. ما أنا بالذي أختار عليه أحداً

فذهب به- صلى الله عليه وسلم- إلى نادي قريش، فقال: يا معشر قرش، أشهدكم أن زيداً هذا ابني وارثاً وموروثاً..

حينئذ طابت نفسُ أبيه وعمه وتركاه.

ثم زوجه بعد ذلك بأم أيمن حاضنته ومربيته واسمها بركة الحبشية، كانت جارية ورثها النبي، وظلت في بيته، وكان يحبها ويجلها ويقول لها يا أماه.. وإذا نظر إليها قال: هذه بقية أهل بيتي.. ويقول: أم أين أمي بعد أمي.. وهي أم أسامة.

ثم بُعِث النبي - صلى الله عليه وسلم- ، فكان زيد من أول الناس إسلاماً، ولما آخى- صلى الله عليه وسلم- بين المؤمنين

في الله.

وبعد أم أيمن زوَّجه النبي- صلى الله عليه وسلم- من بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية.

ولم يُذكر في القرآن أحد باسمه من الصحابة إلا زيد..

وشهد زيد المشاهد كلها مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حتى استشهد في معركة مؤتة، وقد كان أول قائد لجيشها، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، وقد استشهدوا جميعاً في هذه المعركة..

ونشأ أسامة في منزل الوحي، وتَرَبَّى في بيت النبوة، وكان النبي- صلى الله عليه وسلم- يحبه، ويقول: إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليَّ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاسْتَوْصُوا به خيراً.. وكان يعرف بين المسلمين: بِحِبِّ رسول الله.

وقد رُوِيَ أن العباس عم النبي وعلي بن أبي طالب دخلا عليه- صلى الله عليه وسلم-، وقالا: جئنا لتخبرنا أي أهلك أحب إليك.

قال: فاطمة. قالا: ثم من؟ قال: فأسامة بن زيد.

ميزان القيم:

وفي سيرة أسامة بن زيد وسيرة أبيه، يتجلّى جانب عظيم من عمل الإسلام في تحطيم القيم الجاهلية، التي كانت تُقيم الفوارق الضخمة بين الناس، على أساس العصبية والمال والجاه، وقد كانت قيماً عميقة الجذور في المجتمع العربي، تقوم عليها علاقاته ومعاملاته وارتباطاته، حتى أنه لما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - اعترض المشركون على شخصه الكريم، فقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

[الزخرف: ٣١]

وجهلوا أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

جاء الإسلام فألغى هذه الفوارق بين الناس، وقضى على تلك القيم والموازين، وأقام ميزاناً جديداً، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

[الحجرات: ١٣]

الحقيقة، فقال:

«أيها الناس، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»:

وجَهدَ النبي- صلى الله عليه وسلم- في إقرار هذه الحقيقة، فأقام على أساسها مجتمعه الجديد في المدينة، فلم يكن فيه فرد أكرم بجنسه ولونه من فرد، ولا إنسان أفضل بجاهه وماله من إنسان. فجمع بين الحُرّ والعبد، وبين العربي وغير العربي، وبين الغني والفقير، كلهم متساوون في الحقوق والواجبات، وإنما يتفاضلون بالإيمان والعمل الصالح.

وعندما قال أبو ذر الغفاري لبلال بن رباح: «يا ابن السوداء» غضب لها النبي- صلى الله عليه وسلم- غضباً شديداً.. وكان مما قاله لأبي ذر: أعَيَّرْتَه بأمه!! إنك امرؤ فيك جاهلية.. يا أبا ذر، ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء..

وارتفع جماعة من المؤمنين في هذا المجتمع إلى قمته، وما كانوا ليَحْكُموا بهذه الذروة لولا الإسلام، وكان الميزان الذي رفعهم هو ميزان السماء.

وكان من بين هؤلاء زيد بن حارثة وابنه أسامة،

فجعل- صلى الله عليه وسلم- عمه حمزة وزيد بن حارثة أخوين، عندما آخى بين المؤمنين في العهد المكي، ثم زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية لمولاه زيد.

وبعث- صلى الله عليه وسلم- زيداً أميراً في غزوة مؤتة، وجعله الأمير الأول، يليه جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري. على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، فيهم خالد بن الوليد.

حِبُّ رسول الله:

وكان أسامة يُعرَف بين المسلمين بحِبِّ رسول الله، وكانت له مواقفه ومكانته في المجتمع، رَغْمَ صِغَر سنه، وقد اختاره النبي- صلى الله عليه وسلم- أميراً لبعض السرايا.

وعرف المسلمون لأسامة هذه المكانة عند النبي- صلى الله عليه وسلم- ومدى حبه له، وحدث أن سرقت زينب المخزومية وثبتت عليها السرقة، فأراد قومها بنو مخزوم إعفاءها من حد السرقة تَجَنُّباً للعار، فَهُم في الذروة من قريش، فقالوا: من يُكلِّم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ليعفيها من إقامة الحد؟! فلم يجدوا إلا أسامة ليقوم بهذه الشفاعة.

فلما كلم أسامة النبي- صلى الله عليه وسلم- في ذلك،

من حدود الله؟!

وخطب النبي- صلى الله عليه وسلم- المسلمين، فقال:

أيها الناس، إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.. والله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها.

وكانت التربية النبوية عميقة الأثر في نفس أسامة، منها ما رُوي أنه في إحدى الغزوات حمل أسامة على أحد المشركين بسيفه، فلما دنا منه وهَمَّ بقتله، نطق المشرك بالشهادة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.. ولكن أسامة قتله بعد ما نطق بها.. فقال له أصحابه: بئس ما صنعت يا أسامة، قتلت رجلاً قال: لا إله إلا الله!!

ولما علم النبي- صلى الله عليه وسلم- غضب، وقال لأسامة:

قتلته يا أسامة، وقد قال لا إله إلا الله!

فقال أسامة: إنما قالها مُتَعوِّذاً من السيف.

فقال النبي: قتلت رجلاً نطق بالشهادة يا أسامة؟!

وما زال النبي- صلى الله عليه وسلم- يرَدِّد ذلك، ويقول: يا رسول الله، إنما نطق بالشهادة خوفاً من القتل.

فقال له النبي- صلى الله عليه وسلم- : هَلاَّ شققت عن قلبه، لتعلم أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟!

وكان لهذا الحادث أثره البالغ في نفس أسامة، ففي الحرب بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، اعتزل أسامةُ في بيته، ورفَض أن يخوض هذه الحرب.. فلما عاتبه علي بن أبي طالب، قال له أسامة:

إنك لَتَعْلَمُ يا علي منزلتك عندي، وحبِّي لك، وإنك لو أدخلت يدك في فم تنين، لأدخلت يدي فيها ما تردَّدْت، ولكنك تعلم، أني تعهدت لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-: ألا أرفع سِلاحي على من قال: لا إله إلا الله.

وقبل أن يلحق النبي- صلى الله عليه وسلم- بالرفيق الأعلى، أراد أن يُؤَمِّنَ الجزيرة من قِبَلِ الروم من ناحية الشام، فأمر بتجهيز جيش لهذا الغرض، واشترك في هذا الجيش كثيرٌ من وجوه المهاجرين والأنصار، فدعا النبي- صلى الله عليه وسلم- أسامة، وعقد له لواءَ الجيش، وَوَلاَّه قيادته، وقال له:

«أُغْزُ باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدُروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأةً ولا عسيفاً أي: أجيراً، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهبَ ريحُكم، وقولوا: اللهم إنا عبادك، نَوَاصِينا ونَواصيهم بيدك، وإنما تغلبهم أنت.

صلى الله عليه وسلم- فهما في عرف المجتمع العربي، وابنهما من الموالي، فكيف يمكن في مجتمع، حديث العهد بقيم النسب والجاه والسن، أن يجعل مثل هذا الشاب قائداً على وجوه المهاجرين والأنصار، فيهم مثل عمر بن الخطاب؟!

إنه الإسلام الذي جاء ليحرر الإنسان، تحريراً كاملاً من جميع القيود والأغلال، والأوضاع الفاسدة والقيم الزائفة، ويُقيم مجتمعه على أساس العدل والمساواة، ويجعل القيمة الحقيقية في الحياة للإيمان والعمل، لا للجنس ولا للّون ولا للسن ولا للمال.

وكأنما أراد النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يطمئن على مجتمعه الجديد، قبل أن يلقى ربَّه، فكان اختيار أسامة قائداً لهذا الجيش، إختياراً لمجتمعه الجديد، ومدى استقرار قيَمِهِ فيه.. ولكنه كان اختياراً قاسياً على بعض النفوس، فقد بَلَغه- صلى الله عليه وسلم-، وقد بَدَأ يَشْكُو مَرَضه الأخير، أن بعض جنود الجيش يَرَوْن أن يولِّي عليهم مَنْ هو أكبر سناً من أسامة.

فغضِب النبي- صلى الله عليه وسلم-، وتحامل على نفسه وهو مريض، فخرج إلى المسجد وصَعد المنبر، فقال:

يا أيها الناس. ما مقالة بَلَغَتْني عن بعضكم، في تأميري أسامة؟!

والله لئن طعَنْتُم في إمارة أسامة، لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبلُ، وأيْمُ الله، إن كان للإمارة خليقاً، وإن ابنه من بعده خليقٌ بالإمارة.

فلم تكن توليةُ زيد بن حارثة، ثم ابنه أسامة، قيادة الجيش لمجرد حبه- صلى الله عليه وسلم- لهما، لم يكن رفعهما لهذه المكانة عن هوىً- وحاشاه- صلى الله عليه وسلم-، ولكنه اختارهما، لأن زيد بن حارثة كان جديراً بالقيادة، وكان ابنه أسامة من بعده جديراً بها.

* * *

ولحق النبي- صلى الله عليه وسلم- بالرفيق الأعلى، قبل أن يتحرّكَ جيشُ أسامة، وتولّى أبو بكر الصديق الخلافة من بعده، وخرج من المدينة يُودّع الجيش.. وأبو بكر يمشي على قدميه، وأسامة راكب.. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لَتَرْكَبَنّ أو لأَنْزِلَن.

فقال أبو بكر: والله لا تنْزل، ووالله لا أركَبُ.. ومالي لا أُغَبِّر قدمي ساعة في سبيل الله.

وودّع أبو بكر الجيش، فقال:

شيخاً كبيراً ولا امرأةً.. ولا تقطَعُوا شجرةً مثمِرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ.. أستَوْدِع الله دينكم وأمانتكم وخواتيمَ أعمالكم.

وكان عمر بن الخطاب أحد جنود الجيش، وأراد أبو بكر أن يَسْتَبْقِيَه معه لحاجته إليه، فقال:

يا أسامة، إن رأيت أن تُعِينَني بعمر فافعل.

فأذن أسامة لعمر بالبقاء.

وكان عمر كثيراً ما يذكر ذلك، فكان يقول لأسامة: توفي النبي- صلى الله عليه وسلم- وأنت عليَّ أمير.

رضي الله عنهم أجمعين.

★ ★ ★